الدب الـروسي يربك الرحلة بين قمتين.. من ريجا إلى بوخارست

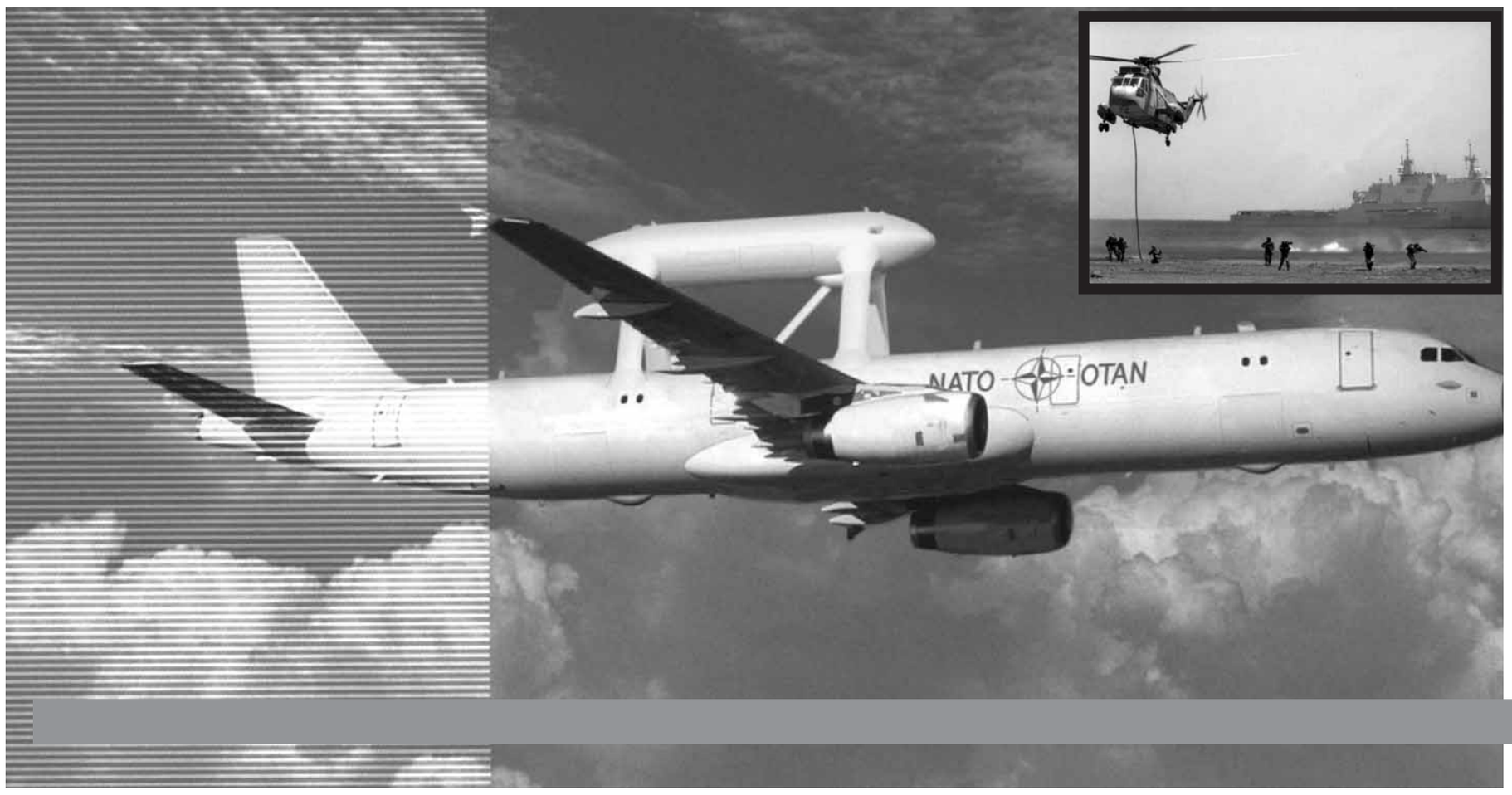

■ وقام حلف الاطلسي كإطار يضم كلاً من اوروبا والولايات المتحدة بالعبء الاكبر حتى أعيته المطاردة والالحاح الاميركي على ضرورة الاستمرار في مواجهة عدو ضبابي الملامح.

ومع اضمحلال الحرب على الإرهاب غيرت واشنطن من دفة الأحداث نحو الاتحاد الروسي مرة اخرى باعتباره يشكل خطراً كامنا بالمعايير الاميركية، وقررت زرع محطات رصد ورادارات كشف ومواقع صواريخ مضادة للصواريخ فيما يعرف بـ (الدرع الصاروخية الأميركية) بذريعة ان ثمة صواريخ تهدد من اوروبا والولايات المتحدة معاً من دول تدعم الارهاب ليس من بينها روسيا، لكن الحيلة لم تنطل على موسكو واتخذ برلمانها المصغر (الدوما) قرارا بوقف العمل بمعاهدة القوات التقليدية، وهو قرار اتخذ بالاجتماع في السادس من نوفمبر الماضي وبعده اخذت موسكو تهدد بتوجيه صواريخها مرة اخرى باتجاه اوروبا، وهكذا اوقع الحليف الاميركي حليفه الاوروبي تحت راية حلف الناتو في ورطة لا يرغب الاوروبيون في السقوط فيها.

وجاءت قمة حلف الناتو في ريجا في نهاية عام ٢٠٠٦ بمثابة مناسبة لكشف ابعاد الخلاف الحاد الذي طرأ بين اوروبا، وخاصة المانيا وفرنسا، من ناحية والولايات المتحدة من ناحية اخرى على اثر محاولات الضغط على ألمانيا لاتخاذ اوضاع هجومية في افغانستان بعد أن كان دورها مرتبطا بأنشطة غير قتالية.

ولم تكد تهدأ المواجهة حول هذه القضية، حتى برزت الى السطح ازمة الملف النووي الايراني لتزداد حدة المواجهة بين روسيا والولايات المتحدة، ولم تفلح الدعاية الاعلامية الغربية وبخاصة الاميركية في اقناع الروس بأن تحركات حلف الاطلسي لا تستهدف اي تهديد لروسيا، رغم ان مجرد اختيار ريجا، عاصمة لاتفيا، كمقر لاجتماع قمة الحلف السابقة كان بمثابة رسالة لا لبس فيها بأن روسيا هي الهدف المقبل، وتبع ذلك خطوات لتوتير علاقات روسيا مع دول اخرى كانت جزءاً من الاتحاد السوفيتي مثل جورجيا واوكرانيا. وغدت روسيا ترى نفسها محاطة بقوات حلف الاطلسي تحت القيادة الاميركية في العراق وافغانستان وتركيا، وقواعد اقيمت حديثا في دول (المعسكر الشرقي) السابق سواء في اوروبا او في القارة الآسيوية ويمكن القول إن مخاوف روسيا تعاظمت تجاه حلف الاطلسي عقب قمة الحلف في لاتفيا اواخر عام ٢٠٠٦ حيث بدأت واشنطن في الاعلان ان خطط الحلف تستهدف ايران ودولا شرق اوسطية اخرى، لتبرير نشر الدرع الصاروخية في دول شرق اوروبا، وتعالت ضجة إعادة ترتيب اوراق الناتو في افغانستان، لكن موسكو لم تقتنع بهذه المعاذير واخذت في إعداد حزمة من ردود الفعل على المستويات العسكرية والسياسية والدبلوماسية.

ومع تعاظم الغموض، وايضا الشكوك، اعادت روسيا توجيه صواريخها البالستية باتجاه اوروبا وحركت قاذفاتها الاستراتيجية واسطولها البحري في مناطق كانت قد توقف عن ارتيادها، متأثرة بحالة التراجع الاستراتيجي التي تعرضت لها روسيا خلال حقبة الثمانينيات والتسعينيات، وزاد من مناخ التأزم إعلان استقلال كوسوفو وإصرار روسيا على مواصلة دعم الملف النووي الايراني والتنسيق مع الصين والهند للحفاظ على جبهة آسيوية قوية تحمي مصالح تلك الدول الآسيوية الكبرى من هجمة غربية تقودها الولايات المتحدة في العالم كله للحفاظ على مصالحها، واصبح على الاتحاد الاوروبي ان يدفع فاتورة طموحات الولايات المتحدة في ظل حقبة حكم اليمينيين الجدد التي بدأت مطلع هذا القرن وما تزال قائمة والتي غدت تنظر إلى أزمات المستقبل بعين القلق على معدلات الرفاهية في الحياة الاميركية والتي غدا يهددها مهددات عديدة نتيجة التحولات العالمية الكبرى واخفاقات السياسة الاميركية الخارجية وتراجع صورة الاقتصاد الاميركي كاقتصاد مهيمن وهو الامر الذي ترك تداعياته بشده على سعر العملة الاميركية (الدولار) وعلى كفاءة التحركات العسكرية عبر العالم، ومن ثم زادت الضغوط الاميركية على الاوروبيين عبر قيادة حلف الاطلسي ليعملوا ضمن (الاجندة) الاميركية وليس ضمن ما تمليه عليهم مصالحهم مع جيرانهم في آسيا وافريقيا بصفتهما القارتين اللتين تشكلان الظهير المهم لدعم الاقتصاد الأوروبي.

في قمة ريجا كان التركيز على اقناع ألمانيا بتكثيف عملياتها العسكرية المباشرة في افغانستان وفي قمة بوخارست كان التركيز على فرنسا لتقريبها من أوساط القيادة بعد حالة الجفاء التي اكتنفت علاقة الحلف بفرنسا منذ ان اعلن شارل ديجول عام ١٩٦٦ انسحاب بلاده من الحلف، الا ان الرئيس السابق جاك شيراك قد اعاد العلاقة (جزئياً) مع الناتو في نهاية القرن الماضي.

وجاء انتخاب رئيس فرنسي موال للفكر العسكري الاميركي (ساركوزي) ليزيل بقايا الخلاف، واعلن ساركوزي في قمة الحلف ببوخارست مؤخرا دعم قوات (إيساف) بسبعمئة جندي، كما قرر الحلف عقد قمته الستين للحلف في ستراسبورج بفرنسا العام المقبل ليتم اسدال الستار على نصف قرن من الجفاء بين الجانبين، وبذلك حلت فرنسا محل ألمانيا الرافضة بشدة تحويل نشاطها في أفغانستان الى العمل العسكري المباشر.

كما ستسعى فرنسا من خلال رئاستها للاتحاد الاوروبي اعتباراً من اول يوليو المقبل لتأكيد استعدادها للامتثال لضوابط العلاقة الجديدة في الحلف.

لقد كان لفرنسا مطلب اساسي في الماضي وهو تعزيز السياسة الدفاعية والأمنية للاتحاد الاوروبي، كما كان لها موقف معارض من غزو العراق، لكن ساركوزي سعى لإثبات ان الجفوة بين فرنسا والناتو صارت مجرد تاريخ.

وبعد ان استثمرت قيادة الناتو مناسبة القمة السابقة والتي سبقتها(في بوخارست وريجا) للاقتراب من حدود روسيا وتعزيز تواجد الحلف الاطلسي على مقربة من حياض عدوه التقليدي، هاهي القيادة الاطلسية في ثوبها الجديد توجه نشاطها باتجاه تعزيز جبهتها الداخلية بتعميق المصالحة مع فرنسا، وبانتهاج ما يعتبر تراجعاً عن سياسات عام من الاستفزاز المتعمد للاتحاد الروسي الذي يتململ من تأثير الشعور بالمخاوف من اندلاع خلاف مستقبلي اعمق مع قوات حلف شمال الاطلسي لا يريد ان يخرج منه خاسراً بعد انهيار الاتحاد السوفيتي.

وقبل يوم من انعقاد قمة بوخارست اعلن الرئيس الاميركي جورج بوش من كييف ان (دولا) قالت له ان روسيا لا تمانع في انضمام جورجيا واوكرانيا الى حلف الناتو، ولكن موسكو اعلنت مراراً انها ترفض بإصرار هذا التحرك، ويأتي اعلان بوش هذا بمثابة (تشويش إعلامي) على الموقف الروسي يضاف الى النهج الذي التزمه الاعلام الغربي بوجه عام، والاميركي بوجه خاص، حول مسار العلاقة التفاوضية بين الولايات المتحدة وروسيا قبيل قمة بوخارست، حيث كان التناقض في التصريحات هو سيد الموقف. فبينما اعلن وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف انه لا يوجد اتفاق حول الدرع الصاروخية في اوروبا الشرقية، نجد انباء غربية عن عدم ممانعة روسيا في ذلك بعد اقتراح اميركي خلال زيارة وزيري الدفاع والخارجية الاميركيين الى موسكو منتصف الشهر الماضي بأن يتواجد ضباط روس في منشآت المنظومة الاميركية المضادة للصواريخ المزمع إنشاؤها في كل من بولندا والتشيك واقتراح آخر بضبط رادارات المنظومة بحيث لا تتوجه باتجاه الاراضي الروسية.

وقد حرص الرئيس الروسي المنصرف فلاديمير بوتين في خطابه ولقائه الصحفي في مقر قمة بوخارست عقب اجتماع مجلس الناتو وروسيا في آخر يوم من أعمال القمة على التأكيد على دحض المزاعم بوجود (ليونة) في الموقف الروسي من القضيتين الاساسيتين للحلف وهما التوسع شرقا، والدرع الصاروخية. وكان حديث بوتين على منصة القمة واضحا ومحددا بأن روسيا لم تغير موقفها، وقد جاءت زيارة الرئيس الاميركي جورج بوش الى سوتشي في روسيا لتؤكد مساعي الولايات المتحدة لاسترضاء روسيا عقب المناورات السياسية والاعلامية التي مورست خلال قمة الاطلسي في بوخارست.

البعد الاقتصادي للصراع بين أعضاء الناتو وروسيا

تدرك روسيا جيدا أن الاتحاد الاوروبي يجنح نحو البناء الاقتصادي للاتحاد عقب توسيع إطاره ليشمل دولاً كانت ضمن حلف وارسو سابقا وهي في مجملها دول ذات اقتصاد ضعيف، وتحتاج الى جهد كبير ودعم مادي لإدماجها مع اقتصاد اوروبا الغربية. وتدرك الولايات المتحدة ايضا هذا التوجه من الجانب الاوروبي، لذلك تتجه الارادة الاميركية الى (شغل) الاتحاد الاوروبي، رغما عنه، في قضايا وصراعات ذات صبغة عسكرية هجومية في كل من افغانستان والعراق وكوسوفو على وجه الخصوص رغم الانهاك الذي اصاب كلا من افغانستان والعراق وكوسوفو على وجه الخصوص، رغم الانهاك الذي اصاب الجيوش الاوروبية في العراق وبخاصة الجيش البريطاني، الذي تبحث له لندن عن ذريعة تحفظ ماء الوجه حتى يمكن ترتيب (انسحاب مشرف) من العراق.

وعلى هذا الاساس خرجت القوات البريطانية من البصرة بجنوب العراق وتمركزت حول المطار تمهيدا للرحيل النهائي.

الادراك الروسي لهذه الحقيقة في التوجه المتعارض لجناحي الاطلسي (الاتحاد الاوروبي والولايات المتحدة الاميركية) وبذلك لجأت موسكو الى ادارة الصراع مع الجناحين كليهما على اساس اقتصادي، حيث هو المجال الذي يمكن لموسكو فيه تحقيق الفوز، بالنظر إلى تحسن اقتصادها مؤخرا، ونجاح استراتيجية الانفتاح الاقتصادي على الغرب وامتلاك روسيا لورقة الطاقة التي تصدرها الى الاتحاد الاوروبي (الغاز خاصة) والتي تشكل ورقة ضغط شديدة الخطورة في العلاقة بين روسيا والاتحاد الاوروبي.

ولتطوير الاستراتيجية الروسية دعا الرئيس الروسي السابق بوتين والممسك بخيوط الاحداث على المسرح السياسي في بلاده الى تعزيز الشراكة الاستراتيجية بين روسيا والصين فيما يشكل الركيزة الجديدة في أداء روسيا الجديدة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي.

وقد جاءت الدعوة الروسية من خلال رسالة بعث بها بوتين الى الرئيس الصيني هوجينتاو عقب الاعلان في بكين عن إعادة انتخابه على رأس الدولة الصينية. كما جاءت مباشرة عقب زيارة وزيرة الخارجية والدفاع الاميركيين كوندوليزا رايس وروبرت جيتس.

وتشتد شيئا فشيئا اواصر العلاقة بين موسكو والصين لشعورهما بعدوانية الولايات المتحدة ومساعيها لجر اوروبا الى مواجهة معلنة وصريحة مع ما كان يعرف في الماضي بالمعسكر الشرقي والتوسع العسكري والاقتصادي لكل من الولايات المتحدة والاتحاد الاوروبي في آسيا الوسطى، الامر الذي يهدد مصالح كل من الاتحاد الروسي والصين على السواء. وتشعر بكين بأن من مصلحتها تعزيز العلاقات مع روسيا لمعالجة ملفاتها المتفجرة مع واشنطن خاصة فيما يتعلق بمتاعبها من القلاقل في التبت ومضيق تايوان والمنافسة الاقتصادية المشوبة بالدعاية السلبية ضد كفاءة الصيني في الاسواق العالمية التي تشنها العاية الاعلامية الغربية ومنها الاميركية على وجه الخصوص. كذلك تسعى روسيا إلى تعزيز علاقاتها مع دول اخرى مثل الهند وايران والدول العربية، مستفيدة من قدرتها التنافسية في المجال الاقتصادي اكثر من المجال العسكري. هذا في الوقت الذي تمضي فيه سياسة الولايات المتحدة في (إنهاك اوروبا) عبر (شراكات) عسكرية عن طريق نشاطات حلف الاطلسي الذي سعى قبيل انعقاد قمته في بوخارست ايام الاربعاء والخميس والجمعة الماضية الى

رصد الأحداث في بوخارست

- محمد عبدالخالق:

■■ من ريجا عاصمة لاتفيا، التي كانت جزءاً من الاتحاد السوفيتي الى بوخارست التي كانت عضوا في حلف وارسو السابق، تتلخص ازمة حلف شمال الاطلسي (الناتو). حيث الاتحاد الاوروبي يسعى بقوة الى جعل الحرب العالمية الثانية آخر الحروب في تاريخ القارة، ومنذ وضعت تلك الحرب اوزارها خاضت الدول الاوروبية عقودا من جهود التنمية وإعادة البناء رغم استعار الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي مع ذراعة العسكرية (حلف وارسو) وبين الولايات المتحدة وذراعها القوية (حلف شمال الاطلسي).

إلا ان الاميركيين شركاء اوروبا في الحلف لهم (طموح) آخر، فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي في بداية تسعينيات القرن الماضي ثم حل حلف وارسو لم يعد ثمة مبرر للاتحاد الاوروبي ليخشى احتمالات العدوان من حدوده الشرقية، فانعطف يلملم اشتاته ويفتح حدوده ويضم دولا إليه، كانت من قبل أجزاء مما يعرف بالكتلة الشرقية، ونجح الاتحاد الاوروبي الى حد كبير في تأسيس قلاع صناعية غدت تنافس بقوة في الاسواق العالمية وتشكل تحدياً كبيرا لهيمنة الولايات المتحدة على تلك الاسواق بالنظر الى انخفاض ميزانيات الدفاع في الاتحاد الاوروبي قياساً بالولايات المتحدة ايضا، وعدم النزوع الى مغامرات خارجية.

ولم يكد يمضي عقد من الزمان تفكك الكتلة الشرقية حتى واجهت الولايات المتحدة اكبر وأخطر تحد لها في عقر دارها وهو حادث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، الذي اتكأت عليه الادارة الجمهورية في مطلع القرن الحالي لتوسيع نطاق المغامرات العسكرية وجر اوروبا الى المعترك، باعتبارها الشريك التقليدي في الناتو بغرض الانغماس في ذات المغامرات. فقد اتخذت الولايات المتحدة بقيادة الحزب الجمهوري واليمنيين الجدد الذين تحكموا في مقاليد الأمور، على اثر انتخابات أحاطت بنتائجها الشكوك، اتخذت مساراً تصعيدياً في مواجهة عدو مجهول جعلت منه واجهة لمخططات إعادة الهيمنة على كثير من مواقع النفوذ التي بدا أنها فقدتها خلال العشرين سنة الأخيرة، مما اكد لواشنطن وللعالم أن انحدار الاقتصاد الاميركي وتضعضع الهيبة العسكرية لها في نهايات القرن الماضي لم يكن بسبب وجود الاتحاد السوفيتي الذي صورته الدعاية الغربية على أنه (الشيطان الاكبر)، وإنما بسبب آليات وعوامل اقتصادية، وجيوسياسية ساعدت على نهوض اوروبا من كبوتها ومكنتها من التحول إلى عملاق اقتصادي يضم ٢٧ دولة مع قربها من الاسواق في آسيا وأفريقيا وايضا من منابع الطاقة في الشرق الاوسط وعلى نحو يوجد لاوروبا نقاط تميز وعناصر تفوق على الاقتصاد الاميركي الذي يترنح تحت ضغط برامج انفاق هائلة وضغوط على سعر العملة الاميركية وهيمنة جماعات ضغط ذات مصالح لا تكترث سوى بعنصر الربح فقط.

ومنذ تلك الاحداث في ٢٠٠١ اصطنعت واشنطن، تأسيساً على شعورها بالخطر، منهجاً جديدا يقوم على ما يعرف الآن باسم (الحرب على الارهاب العالمي) ومن ثم أجبرت شركاءها في حلف الاطلسي، خاصة اوروبا، على القيام بدور عسكري مباشر خارج الاراضي الاوروبية حسب مبدأ الضربات الاستباقية واقتلاع جذور الارهاب من مكامنه الأصلية، حتى اضطرت بعض الدول الاوروبية تحت الضغط الاميركي لتعديل دساتيرها لتمكين برلمانها من السماح لقواته بالعمل في اراض بعيدة وضد أنظمة لم ترتكب اي عدوان على الاتحاد الاوروبي او تهدد مصالحه.